البحث الاول

الدراسات والبحوث البينية مدخل لتطوير الدراسات التربوية في الوطن العربي

أ.د/ عبد الرازق مختار محمود

أستاذ المناهج وطرق التدريس – كلية التربية – جامعة أسيوط

Razic2005@gmail.com

الدراسات والبحوث البينية مدخل لتطوير الدراسات التربوية في الوطن العربي

أ.د/ عبد الرازق مختار محمود

أستاذ المناهج وطرق التدريس

كلية التربية – جامعة أسيوط

Razic2005@gmail.com

فرضت الثورة المعلوماتية والعولمة على العالم المعاصر متغيرات وتوجهات عدة، من أهمها ضرورة الاهتمام بوحدة المعرفة لمواجهة المشكلات والتحديات؛ نتيجة لتزايد القضايا والمشكلات التي يصعب معالجتها من منظور أو تخصص علمي أحادي، ما تطلب إحداث المزج والتكامل بين التخصصات؛ لوضع المعلومات في سياقها، وربطها في نظام شمولي، وهو ما يُطلق عليه تداخل التخصصات أو الدراسات البينية "Interdisciplinary".

حيث أدى تشابك العلوم وتنامي المعرفة ووحدتها إلى تنامي التوجهات نحو الدراسات والبحوث البينية التي تتداخل فيها التخصصات؛ بهدف توظيف المعلومات في سياقها وفق منظور يتشابك فيه الاقتصادي بالنفسي بالاجتماعي بالإنساني؛ لفهم الواقع، وبناء المعاني ضمن إطار أشمل وأوسع.

والدراسات البينية هي دراسات تعتمد على حقلين أو أكثر من حقول المعرفة الرائدة، أو العملية التي يتم بموجبها الإجابة عن بعض الأسئلة، أو حل بعض المشاكل، أو معالجة موضوع واسع أو معقد يصعب التعامل معه بشكل كافٍ عن طريق نظام أو تخصص واحد.

وفي دليل أكسفورد للدراسات البينية، تشير بينية التخصصات إلى مدخل يعبر عن دمج تخصصات متعددة في معالجة قضية بحثية ما يتعدى مجالها نطاق تخصص واحد، وذلك وفق معياري التكامل integration والتفاعل interaction بما يؤدي إلى تطوير المفاهيم والافتراضات النظرية واستيعاب مناهج بحثية متنوعة والتوصل إلى نتائج عميقة.

وتقوم الدراسات والبحوث البينية على تصور مفاده الاعتماد على تضافر العلوم وتداخلها في تفسير الظواهر الإنسانية والطبيعية؛ لأن العلوم في أصولها وجذورها الأولى متداخلة ومترابطة، واستفاد العلماء على مر العصور من هذا التداخل في تحقيق التطورات التي مرت بها البشرية.

وتعد البينية مرحلة من مراحل تطور العلم، بعد مرحلتي الموسوعية والتخصصية؛ فقد هيمنت الموسوعية قرونًا عدة وفي حضارات مختلفة ثم تلتها التخصصية التي تعد ثمرة طبيعية لتطوير العلوم، وكان للنزعة التخصصية فوائد كبرى لا تكاد تحصى؛ لاكتشاف ما لم يكتشف من الطبيعة والإنسان وتطور حياة البشر في مختلف المجالات. ولكن الحرص على معرفة أسرار الظواهر والتعمق في دراستها أنشأ انعزالا بين التخصصات، وفي أجواء هذا الانعزال نشأت الدعوة إلى الممارسة البحثية البينية.

كما أكد "إرنست روبرت كيرتيوس" الباحث الألماني في معرض تأكيده أهمية التكامل بين التأمل الشامل والتخصص الدقيق لقراءة الأدب قراءة أكثر صحة وعمقًا، أن "التخصص دون رؤية شمولية أعمى، والرؤية والشمولية دون تخصص جوفاء".

فلم يكن الفصل بين العلوم الإنسانية في صالح العلم بوصفه أداة للتقدم بمعناه التكاملي، ولا لصالح العلماء بصفتهم عناصر قيادية من هذا التقدم، كما أوضح بعض الباحثين أن المشاكل البحثية في العالم، تكمن في أن العلماء نادرًا ما تعالج المشاكل البحثية من منظور الدراسات البينية، من هنا بات تحديث البحث العلمي ضرورة قومية ملحة؛ حيث يجب أن تكون العملية البحثية أداة لسد الفجوة بين العلوم المختلفة.

وتسهم منهجية الدراسات البينية في تبادل الخبرات البحثية، والاستفادة من الخلفيات الفكرية والمناهج البحثية المختلفة وإدماجها في إطار مفاهيمي ومنهجي شامل، يساعد على توسيع إطار دراسة الظواهر والمشكلات، وتقديم فهم أفضل لها الأمر الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى الخروج بنتائج دقيقة وتقديم حلول نافعة قابلة للتطبيق.

لذا تعد الدراسات البينية الحل الأنسب واللازم للقضاء على الفجوات والثغرات الناتجة عن الانفصالية بين التخصصات العلمية الدقيقة.

من هذا المنطلق، تعد برامج الدراسات البينية مطلبًا أساسيًا، ومن التقنيات المهمة لتطوير الدراسات التربوية في العالم العربي في الآونة الأخيرة؛ حيث تجمع بين أكثر من نظام وتعمل على تكوين فرق بحثية، بما يثري التجربة التربوية والتعليمية الشاملة، وقد ثبت أن المتعلمين الذين يتعلمون عن طريق الدراسات البينية يتمتعون بمهارات تفكير وإتقان عالية ومتكاملة.

ومما يدعم اعتماد الدراسات البينية كمدخل في تطوير الدراسات التربوية، ما يمكن أن تسهم به وتحققه من جوانب إفادة، ومنها ما يلي:

- دمج المعرفة: وتعني ربط وتكامل المدارس الفكرية والمهنية والتقنية للوصول إلى مخرجات ذات جودة عالية مبنية على العلوم الأساسية والطبيعية، فهناك بعض المشاكل والظواهر التي لا يمكن معالجتها عن طريق تخصص واحد.
- الإبداع في طرق التفكير: وتعني القدرة على عرض القضايا ومزج المعلومات من وجهات نظر متعددة لدراستها وتعميق فهمها.
- تحقيق التكامل: ويعني إدراك ومواجهة الاختلافات بين التخصصات المختلفة؛ للوصول إلى وحدة المعرفة المتكاملة والأكثر شمولًا من المسموح به من قبل رؤية واحدة أو تخصص واحد.
- إنتاج المعرفة: فالحاجة إلى إجراء الدراسات البينية حاليًا أصبحت أقوى من ذي قبل؛ حيث إن هناك العديد من المشاكل المتزايدة التي لا يمكن أن تحل بصورة وافية عن طريق تخصص واحد معين.

كما تساعد الدراسات البينية على مواكبة التطور الجاري في كثير من التخصصات عالميًا، بما يلبي المتطلبات الديناميكية المستمرة للمجتمعات الحديثة التي تتطلب درجات أعلى من التخصص.

بالإضافة إلى دور الدراسات البينية في استحداث تخصصات جديدة أخرى تفي باحتياجات المجتمع من أصحاب الكفاءات العلمية المؤهلين تأهيلًا متباينًا، وزيادة التفاعل بين العلوم الطبيعية والاجتماعية، وفهم وتحليل قضايا معقدة تتفاعل فيها المظاهر والأسباب والحواس، وإيجاد بدائل لمعالجتها، وكذلك ربط النظرية بالممارسة من خلال تعاون العلماء والمختصين والخبراء والمؤسسات.

ونتيجة لذلك، تتنافس العديد من المؤسسات الأكاديمية العالمية في وضع سياسات خاصة لتطبيق البرامج الدراسية ذات الطبيعة البينية، ما يوجب ضرورة تطوير الدراسات التربوية في الوطن العربي على وفق الدراسات والبحوث البينية. فقد زاد الإقبال والطلب على الدراسات البينية في مختلف حقول المعرفة، واعتمدت عليها البرامج التدريبية في جامعات عالمية ذات سمعة متميزة.

وعلاوة على ذلك فإنه يمكن بتوظيف الدراسات والبحوث البينية مواجهة وحل مشكلات تربوية ومواجهة التحديات المختلفة التي لا يمكن مواجهتها من خلال تخصصات معرفية منفصلة، بل تحتاج إلى برامج بحثية تقوم على التكامل بين التخصصات، كما يمكن أن تسهم في إكساب المتعلم معلومات تكاملية مبنية على العلوم الأساسية والطبيعية، وتعلمه العلوم من منظور متنوع، يساعده على اختيار ما يناسب مستقبله المهني المنشود.

فلم تعد البينية ترفًا معرفيًا، وإنما صارت حاجة يقتضيها البحث، وخاصة في الموضوعات المركبة والمعقدة التي تتطلب طرائق متعددة، وعلى المستوى الاقتصادي والاجتماعي، يتجلى دور الدراسات البينية من خلال الأبحاث التطبيقية التي تعتمد على انتقال العلوم من المستوى النظري إلى التطبيقي، ومن المعرفة لذاتها إلى معرفة منفتحة لحل مشاكل قائمة، وعلى مستوى البحث العلمي، تنعكس الدراسات البينية على ذاتها، مقومة لمنهاجه، وأدواته، ونتائجه؛ فالبينية هي إطار لمواجهة النزعة التخصصية المتنامية.

وتبرز أهمية الدراسات البينية في توفير المعلومات لصانعي القرار الذين يحتاجون بصورة متزايدة إلى المعلومات والبيانات حول الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية الثقافية، وإذا لم تقدم الدراسة العلمية هذه المعلومات، فسيلجأ صانعو القرار إلى اتباع أسلوب التخمين، وصياغة سياسات قد تبتعد عن الواقع، فوضع السياسات وصياغتها يحتاج إلى تكامل المعلومات العلمية حول الجوانب المختلفة للمشكلة البحثية موضوع الدراسة.

لذلك، فالانفتاح في مجال البحث العلمي ضروري وحيوي، وكذلك النظرة التي تلقى على مجال التخصص من خارج التخصص، حتى وإن كانت نظرة بريئة، فهناك الكثير من المصاعب التي واجهتها بعض التخصصات، ولم تجد حلًا لها إلا من خارج التخصص.

ومما يشير إلى أهمية الدراسات والبحوث البينية والدور الفاعل الذي يمكن أن تؤديه في تطوير الدراسات التربوية في الوطن العربي؛ أنه لا ينكر أهمية التخصص في مواجهة وحل العديد من المشكلات والقضايا الإنسانية، إلا أنه انعكس بالسلب على التفكير الإنساني؛ حيث أصبح منغلقًا في نقطة بحثية معينة، مما كان له أثر في فقدان البحث العلمي خصائصه المتمثلة في الانفتاح والتواصل مع المجالات البحثية الأخرى، فضلًا عن سطحية الدراسات والبحوث في دراسة الظواهر والقضايا، بشكل عجزت معه أن تعكس جوانب الحياة المتكاملة، وكذلك تفسير الكثير من المشكلات، ومن ثمَّ حلها، لذا تشكل الدراسات والبحوث البينية مجالًا خصبًا للباحثين؛ لما تمثله من أهمية في دراسة الظواهر المختلفة، فالتغيرات التي حدثت وتحدث في الحياة، إنما نتجت عن العلم ككل، لا عن العلم كأجزاء منفصلة.

والجامعة ومراكز البحث بشكل خاص هي المكان المناسب تمامًا لتطوير البحث العلمي في ضوء الدراسات والبحوث البينية، وفي إمكان الجامعة متابعة التطورات في التخصصات الأساسية وتقسيماتها الفرعية، وفي إمكانها كذلك اختيار وفحص الحدود بين التخصصات والنظم العلمية.

وهناك عدة اعتبارات تدعم الدراسات والبحوث البينية من المنظور التربوي، من أهمها أن التربية تسعى في المقام الأول إلى نقل وتنمية المعرفة وأنماط الفكر كافة، فضلًا عن تشكيل القدرة التفكيرية التي تمكن العقل من الانطلاق نحو المعرفة بطريقة قوية، كما تسعى فلسفة العلم إلى تحرير العقل من القيود والتصورات التي تكبح الفكر من الوصول إلى مسيرة العلم التقدمية، وتحول دون الوصول إلى الحقيقة.

ويمكن تصور ضرورة الدراسات والبحوث البينية بوصفها المسعى المنهجي لتطويع الحدود بين التخصصات، وجعلها أكثر رخاوة أو سيولة، وأكثر شفافية وقدرة، لذلك يجب السماح باختراقات معرفية ومنهجية قادمة من تخصصات مجاورة أو غير مجاورة، وتجاوز استقلالية العلوم باتجاه اتحادات ذات حدود متساهلة.

وسيسهم التوجه نحو الدراسات والبحوث البينية بشكل كبير في توسيع دائرة البحث العلمي؛ كونه يسمح بالاختراقات الصحية والآمنة للمعرفة والمنهجية بين التخصصات، سواء المجاورة أو البعيدة، في الوقت الذي يحافظ على الحدود التخصصية والضوابط العلمية للبنية المعرفية التي تتعامل معها تلك العلوم المتخصصة ومقتضياتها البحثية.

من هذا المنطلق، تعد منهجية الدراسات والبحوث البينية ضرورة لا بديل عنها لنقل خبرات حقيقية إلى ميدان البحث التربوي في الوطن العربي والإسهام في إصلاحه، ومن ثمَّ المشاركة الفاعلة في حل مشكلات المجتمع المعقدة والمركبة؛ حيث تمثل الدراسات والبحوث البينية حلقة وصل بين العلوم المختلفة، ولها مستقبل مشرق في ربط العلوم الإنسانية بالعلوم الأخرى، كما يمكن أن تمثل تلك الدراسات نواة جديدة لمستقبل تخصصات الدراسات الإنسانية والاجتماعية والتربوية.

المراجع:

رانيا عبد المعز الجمال (٢٠١٥)، الدراسات البينية وبعض التجارب العالمية، مؤتمر اللغة العربية والدراسات البينية، الآفاق المعرفية، والرهانات المجتمعية، مركز دراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، من ٢٨- ٢٩ أبريل، ٥٦- ٥٧.

رانيا محمد عزيز نظمي (٢٠١٨)، الدراسات البينية: رؤية لتطبيق معايير الجودة في التفسير، أعمال المؤتمر الدولي الأول: سياقات اللغة والدراسات البينية، كلية التربية ومجلة سياقات الدولية، جامعة الإسكندرية، مج ٢، ٥٣٧- ٥٦٦.

سعد بن عبد الرحمن البازعي (٢٠١٣)، الدراسات البينية وتحديات الابتكار، مجلة الآداب، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، مج ٢٥، ع٢، ٢٢١- ٢٣٠.

شيرين حسن محمد (٢٠٢٠)، واقع ثقافة الدراسات البينية لدى أعضاء هيئة التدريس بجامعة أسوان وآليات تفعيلها، مجلة للعلوم التربوية والنفسية، كلية التربية، جامعة الفيوم، مج١٤.

ضياء الدين زاهر (٢٠١٨)، العلوم البينية منهجية القرن الحادي والعشرين، مستقبل التربية العربية، المركز العربي للتعليم والتنمية، مج ٢٥، ع١١٣، ٢٨٤- ٢٩٨.

عدنان محمد قطيط (٢٠١٨)، باراديم مقترح لتحسين كفاءة البحث الإداري التربوي في مصر في ضوء مدخل التخصصات البينية، مجلة كلية التربية في العلوم التربوية، كلية التربية، جامعة عين شمس، مج ٤٢، ع٢، ١١٢- ٢٠٦.

علياء علي عيسى السيد (٢٠١٩)، الدراسات البينية من أجل الاستدامة ومواجهة القضايا العالمية: بين التحديات والتأصيل، المؤتمر الدولي السنوي الثالث لقطاع الدراسات العليا والبحوث: البحوث التكاملية طريق التنمية، كلية البنات للآداب والعلوم التربوية، جامعة عين شمس، مج٢، ٦٩٧- ٦٩٨.

فايزة أحمد مجاهد (٢٠١٩)، البحوث البينية: تجارب وخبرات- رؤى وآفاق، المؤتمر الدولي السنوي الثالث لقطاع الدراسات العليا والبحوث: البحوث التكاملية طريق التنمية، كلية البنات للآداب والعلوم التربوية، جامعة عين شمس، مج٢، ٣٠٨- ٣١٥.

لطيفة بنت علي البلوي (٢٠٢١) ، رؤية معاصرة لتنمية مهارات البحوث البينية في ضوء بعض الخبرات العالمية، مجلة البحوث التربوية والنوعية، مؤسسة التربية الخاصة والتأهيل التربوي، جامعة بنها، ع٤، ١٥- ٦٨

محمد حسن عصفور (٢٠١٣)، الدراسات البينية والتخصصية في العلوم الإنسانية، مجلة الآداب، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، مج ٢٥، ع٢، ٢٣١- ٢٤٠.

هاني خميس عبده (٢٠١٦)، البحوث البينية وتقدم المجتمعات الإنسانية خلال الألفية الجديدة: تجارب عملية وخيارات مستقبلية، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، مج ٧، ع٣، ١٥٥- ١٦٥.

هدى سعد الدين يوسف (٢٠٢٠)، مرايا البينية الإليكترونية في النص الأدبي، مجلة الدراسات العربية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، مج٤٢، ع٢، ٥٥١- ٥٧٦.

وجيهة ثابت العاني (٢٠١٦)، اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو الدراسات البينية في كلية التربية في كلية التربية بجامعة السلطان قابوس، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، مج ٧، ع٣، ٥٣- ٦٧.